الفصل الخامس والعشرون

تدبر القرآن

إن حصول الانتفاع والتذكر بالقرآن لا يكون إلا لمن تدبره وفهم معانيه، وعاين مواعظه وأوامره ونواهيه، وبهذا التدبر تكون البصيرة والهداية واليقظة؛ وبذلك يصلح القلب وتكون رقته وخشوعه وحياته، وكلما كان تدبر القلب للقرآن أتم زاد الإيمان ورسخ اليقين فيه، وكانت الطمأنينة والسكينة وسعادة الدنيا والآخرة: وأكثر الناس ثباتًا على الدين هو من عقل عن الله أمره وفهم خطابه وأدام تلاوة القرآن والتدبر فيه.

وتدبر القرآن هو فهم معاني الألفاظ وما دلت عليه الآيات، وما دخل ضمن معانيها وما لا تتم المعاني إلا به، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، قال الطبري: «ليتدبروا حجج الله التي فيه، وما شرع الله فيه من الشرائع فيتعظوا ويعملوا به»(١).

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، فالله تبارك وتعالى يأمر بتدبُّر القرآن وهو التأمُّل في معانيه وتحديق الفكر فيه، وكلما ازداد العبد تأمُّلًا فيه ازداد علمًا وعملًا، وبصيرة وفهمًا، وسوف نقف مع التدبر وقفات لعل الله يجعل فيها النفع والإخلاص والقبول والحرص على تدبر آيات القرآن.

أهمية التدبر

لا أنفع للعبد في حياته من إقباله على كلام ربه بتدبر وفهم، ومداومة التلاوة والنظر فيه، وهذا التدبر يثمر للعبد ثمرات كريمة، ويؤثر تأثيرًا عظيمًا في صلاحه وهدايته وثباته، ومن هذه الثمرات التي يجنيها المؤمن من خلال تدبر القرآن ما يلي:

(١) «جامع البيان من تاويل القرآن» لابن جرير الطبري (٢٣/ ١٥٣).

١- صلاح القلب وثباته:

إن في القلب حاجة لا يسدُّها إلا ذكر الله وتلاوة كلامه، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بكتاب الله، وفيه قلق وحيرة لا ينجيه منها إلا الاهتداء بنور القرآن؛ ومهما بلغت منزلة العبد في العلم والتقوى فإنه لا يستغني عن القرآن مثبتًا وهاديًا ومعينًا قط ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن[1]، وذلك لصلاح قلوبها وثباتها على الهدى والدين.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، فالتدبر يزيد القلب نورًا وإيمانًا وثباتًا كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، لذلك نقول لكل مبتلى ولكل منكوب ولكل أسيف حزين: في القرآن سوف تجد الثبات، سوف تجد سلوة وأنسًا وذهابًا لهمك وغمك، اتخذ القرآن أنيسًا يغنك ويسعدك، أدم تلاوته وأدمن تدبره وأقبل عليه سوف تجد قرة العين وطمأنينة القلب وهدوء الخاطر وراحة البال والضمير، يقول ابن القيم عليه رحمة الله: فلا شيءَ أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العالمين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لا شتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى إذا مرَّ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهُّم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٣٠).

وأدعى لحصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب، ولهذا قال ابن مسعود: «لا تهذوا القرآن هذ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحرِّكوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة».

وروى أبو أيوب عن أبي حمزة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث قال: «لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إليّ من أن أقرأ القرآن كما تقرأ»(١)، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا ابن آدم كيف يرق قلبك وهمتك آخر السورة(٢)، قال إبراهيم الخوَّاص: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين(٣).

٢- محبة الله وخشيته:

من أعظم الأسباب التي تستجلب محبة الله لعبده ومحبة العبد لربه تلاوة القرآن بالتدبر، وكذلك هذا من أعظم أسباب حصول خشية الله في القلب، فمن عرف الله حقًا أحبه لاسيما إذا تدبر كلامه ورأى سابغ النعم وعظيم الفضل، وجلال الأسماء والصفات وعظيم أثرها، والقرآن هو السبيل الأعظم لمعرفة عظمة الله وجلاله وقدرته وكبرياءه، وحكمته ورحمته وغير ذلك من صفات الكمال والجمال والجلال، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى:

أولًا- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه يتفهَّم مراد صاحبه منه(٤).

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٨٩-٢٩٠) ط التوفيقية.

(٢) «مختصر قيام الليل» ص [١٥٠].

(٣) «التبيان في آداب حملة القرآن» ص [٦١] ط مؤسسة التقويم- بيروت.

(٤) «تهذيب مدارج السالكين» ص [٥١٣] ط المكتبة القيمة.

إن من انشغل بهذا القرآن تلاوة وتدبُّرًا وتعلُّمًا وتعليمًا نال من حب الله له بقدر إقباله على كلامه، وتحققت الخشية والخشوع في قلبه بقدر تدبر آياته وفهم معانيه.

٣- الفهم عن الله وطاعة أمره:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عاب المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكر فيه، وتدبَّرت الشيءَ: فكرتُ في عاقبته ودلت هذه الآية: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه[(١)]، فالله تبارك وتعالى أمر بتدبر كتابه ليفهم عنه دينه وشرعه ويتعبَّد الله بما أمر جَلَّ جَلَالُهُ، ولا يمكن أن يفهم المرء مراد الله من كلامه إلا إذا تدبره وتأمله وعرف معانيه وتعلم أحكامه، ولا يكون حال المرء كحال الخوارج الذين يقرؤون القرآن لكنه لا يصل إلى قوبهم ولا يؤثر في نفوسهم؛ لأنهم إنما يرددونه بألسنتهم دون فقهٍ لمعانيه، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وصفهم: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم**»[(٢)]، وفي رواية: «**ولا تعيه قلوبهم**».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال القاضي: لا تفقهه قلوبهم ولا ينتفعون بما تلوا منه ولا لهم حظ سوى تلاوة الفم والحنجرة والحلق إذ بهما تقطيع الحروف، وقيل: لا يصعد لهم عمل ولا تلاوة ولا يتقبل[(٣)].

وإنما ضل من ضل عن الهدى وارتكس من ارتكس في أوحال الانحراف بسبب سوء فهمه وعدم تدبره لآيات القرآن، بل يفهم ما يروق له وأخذ منها ما يوافق هواه ويؤيد بدعته، لذا كان أعظم ما يفسَّر به القرآن هو القرآن فما أُجمل في موضع فُصِّل في

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٥٣-٢٤٥) ط التوفيقية

(٢) رواه البخاري برقم [٧٥٦٢]، ومسلم برقم [١٠٦٣].

(٣) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٤/ ١٧٦) ط دار الحديث بالقاهرة.

آخر، ثم ما جاء تفسيره في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيحة، ثم أقوال الصحابة الكرام عليهم رضوان الله قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فليس أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع الفكر فيه على معاني آياته فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا، فيصير في شأن والناس في شأن آخر، فلا تزال معانيه تنهض بالعبد إلى ربه وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق[(١)].

٤- بالتدبر يعظم أجر التلاوة:

يزداد الأجر في تلاوة القرآن بزيادة التدبُر والتأمُل فكلما كان التدبر أعظم كان الأجر أكبر وأتم ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع**»[(٢)]، فالمقصود من التلاوة فهم خطاب الله ومعرفة مراده، وأهل التدبر هم أكثر الناس شغفًا بتلاوة القرآن ومداومة عليها وتلذذًا بها، فهم بآيات القرآن ينعمون ويترنمون، وبروعة المعاني يُشغلون، وبعبره ومواعظه يعتبرون، وبأحكامه وآدابه يعملون فهم ربانيون مخبتون، عرفوا أصل السعادة فهم به مستمسكون، تقر بالنظر إليهم العيون، وتأنس بالقرب منهم الأرواح والقلوب، فهم قوم فهموا عن الله مراده، وسهرت عيونهم مبتهجة بالنظر في كتاب ربهم والتأمُّل فيه.

٥- حصول بركة القرآن والانتفاع بها:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، يقول السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له فهو أن يلقي سمعه ويحضر قلبه

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٥١-٤٥٢) باختصار ط دار الكتب العربي.

(٢) رواه مسلم برقم [٧٨٧].

ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا وإيمانًا مستمرًا متجددًا وهدى متزايدًا وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب فلم يستمع له وينصت فإنه محروم الحظ من الرحمة قد فاته خير كثير(١).

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها»، يقول الإمام الآجريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «القليل من الدرس للقرآن مع التفكر فيه وتدبره أحب إليَّ من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبر ولا تفكر فيه، وظاهر القرآن يدل على ذلك والسنة وقول أئمة المسلمين».

٦- عظمة الأثر بتدبر كلام رب البشر:

القرآن يربى من وعاه ويعظم أثره فيمن فهمه، وبتدبره يبنى الإيمان وتصاغ النفوس وتُهذَّب الأخلاق، بتدبر القرآن يربى الأبطال والقادة والأئمة، بتدبر القرآن تستعيد الأمة عزتها ومكانتها، ويرجع إليها التمكين المنشود، يقول الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: واعلم أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن واستماعه مع التدبُّر بنية الاهتداء به والعمل بأمره ونهيه، فالإيمان الصحيح يزداد ويقوى وينمو وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة، وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه، ولا فتحوا الأقطار ومصَّروا الأمصار، واتسع عمرانهم وعظم سلطانهم إلا بتأثير هدايته، وما كان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنعه من قراءة القرآن على الناس، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» ص [٣٤٥] ط دار ابن الجوزي.

تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فُصِّلَت :٢٦]، وما ضعف الإسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه إلا بهجر تدبر القرآن، وجعله كالرقى والتعاويذ التي تتخذ للتبرك أو لشفاء أمراض الأبدان، وجلت فائدة الصلاة التي هي عماد الدين بتلاوة القرآن مع التدبر والتخشع فإذا زال منها هذا صارت عادة قليلة الفائدة[(١)].

٧- أنفع شيء للعبد في معاشه ومعاده:

تلاوة القرآن بالتدبر تغرس في القلب البصيرة والفهم والعلم والهداية، وكما يقول ابن القيم: تريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر وتشهده عدل الله وفضله وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه وقواطع الطريق وآفاتها وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترقون فيه، وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه وطريق الوصول إليه، وماله من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان والطريق الموصلة إليه وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها فتشده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن كل الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقًا والباطل باطلًا وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق بين الهدى والضلال والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

---

(١) «تفسير المنار» (٩/ ٤٥٩) ط دار الكتب العلمية.

ثم يقول:

فلا تزال معانيه -أي القرآن- تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمُّر والتخفف للقاء اليوم الثقيل وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته وَوَلَى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل، فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل! وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله واستعن به وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه أضعاف أضعاف ما ذكرناه من الحكم والفوائد[1].

ولله در من قال:

من كان حارسه الكتاب ودرعه ... لم يخش من طعن العدو ووخزه

لا تخش من شبهاتهم واحمل إذا ... ما قايلتك بنصره وبعزه

والله ما هاب امرؤٌ شبهاتهم ... إلا لضعف القلب منه وعجزه[2]

موانع التدبُّر

هناك أمور تحول بين القلب وفهم القرآن، وتشوش على القلب وتشغب عليه وتعرقله عن التدبر، ومن المناسب أن تذكر شيئًا منها قبل ذكر قواعد التدبر، وذلك لأن معرفة الداء نصف الدواء، والوقاية خير من العلاج، واستئصال مادة المرض أولى من تعاطي العقاقير والعلاجات ومن هذه الموانع ما يلي:

(١) «تهذيب مدارج السالكين» لعبد المنعم العزي ص [٢٤٣-٢٤٤] ط المكتبة القيمة.

(٢) «القرآن في حياة المسلم» د/ محمود محمد عمارة ص [٣٠] ط مكتبة الإيمان.

١- شرود الذهن وانشغال العقل:

وهذه من أهم وأخطر الأسباب التي تصد عن طلب العلم عامة وتدبر القرآن خاصة، وعلاج ذلك المجاهدة والمطاردة لهذه الشواغل والاستعاذة بالله، وقد يقتضي الأمر رفع الصوت إن كان يقرأ سرًا، أو تغيير المكان إذا كان فيه ما يشغل، ومن أهم ما يدفع هذه الخواطر استحضار أن الاسترسال معها نوع من سوء الأدب مع الله جَلَّجَلَالُهُ، إذ كيف يخاطبك وأنت مشغول عنه بغيره، فاحذر أن يرى الله من قلبك هذا الالتفات عنه إلى هموم هزيلة وشواغل تافهة، ولازلتُ أذكر هذا المشهد أنه بينما كنت أقرأ في المسجد يومًا وبين يدى المصحف إذ مرَّ من أمامي بعض الناس فرفعت بصري وجعلتُ أنظر إليهم فقال لي معلمي وشيخي: هذا الذي تنظر إليه أهم مما أنت فيه من تلاوة القرآن حتى تنشغل به عن كتاب الله؟! فوقع قوله في قلبي وصار يتردد في نفسي من آنٍ لآخر.

٢- الاهتمام بسرعة الختم وكثرة القراءة:

كثير من الناس يجعل شغله الشاغل الإكثار من عدد الختمات، ولذلك يقرأ قراءة سريعة دون الوقوف على المعاني وفهم الآيات، والأنفع للقارئ أن يفقه معاني الآيات ويتدبرها وألا يعجل في قراءته، لاسيما وقد قال ربنا سبحانه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

٣- الإغراق في الاهتمام بالمخارج وتجويد الحروف مع إهمال التدبر:

من الآفات العصرية المشتهرة والمنتشرة الإغراق في تجويد الحروف وتحسينها والانشغال بها عن تدبر القرآن وفهمه، والمقصود من تلاوة القرآن فهمه والعمل به وليس فقط مجرد إقامة الحروف وأحكام التلاوة، يقول ابن قدامة: وليتخل التال عن موانع الفهم مثل أن يخيل إليه الشيطان أنه ما حققه تلاوة الحروف ولا أخرجه مخرجه فيصرف همته عن فهم المعنى[(١)].

(١) «مختصر منهاج القاصدين» ص [٥٠] ط دار العقيدة.

وكثيرٌ هم الذين يهتمون بالقراءات ووجوه الاختلافات مع القصور الواضح في فهم الآيات حتى إذا سئل أحدهم عن معاني بعض الكلمات في القرآن لم يعرف، وإن سئل عن حكم في الحلال والحرام فيه لم يفقه، وإن فتشت قيامه بالقرآن وعمله به لم تجد لذلك أثرًا، وهذا من الخطورة بمكان، فإن قارئ القرآن ينبغي أن يكون أول العاملين به المستجيبين له المذعنين لحكمه، وإلا فهو حجة عليهم نسأل الله السلامة والسداد.

٤- أمراض القلوب والإصرار على الذنوب:

وهي من أعظم ما يصد القارئ عن اتعاظ قلبه، وانشراح صدره لمواعظ القرآن وفي هذا يقول تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال ابن قدامة: وليتخل التالي عن موانع الفهم ومن ذلك أن يكون مصرًا على ذنب أو متصفًا بكبر أو مبتلىً بهوى مطاع. فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإحاطة الشهوات مثل جلاء المرآة[1]، وكلما كان القلب أصفى والنفس أطهر كلما رسخت فيه معاني القرآن وتمكنت فيه عظاته وأشرقت فيه بيناته وظهرت على القارئ ثمرة التدبر في سمته وخلقه وقوله وفعله، فعلى القارئ أن يطهر قلبه من قذارة الذنوب، وأشباح المعاصي، وكما أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ولا صورة، فكذلك لا يتمكن قلب مشحون بالكلاب والصور من تدبر القرآن وفهمه كما ينبغي، فالتخلية قبل التحلية، وإزالة مصدر المرض أنفع وأقرب لحصول الشفاء، ولا ينبغي للمرء أن يدع القراءة تذرعًا بأنه لا يجيد التدبر، كلا بل يديم القراءة ويجاهد نفسه حتى تستقيم على فهم القرآن وتدبره، والله المستعان.

---

(١) المصدر السابق ص [٥٠-٥١].

السبيل إلى تدبر القرآن

قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧]، من حكمة الله ورحمته أن يسَّر كلمه، وسهل خطابه؛ حتى يفهمه عباده ويعتبرون به، فمن أقبل على القرآن انتفع وارتفع، واطمأن وسعد، وذلك حينما يصغي إليه بسمعه، وينصت إليه بقلبه، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه سبحانه لك على لسان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مؤثر مقتضٍ، ومحلٍّ قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبْيَن وأدلة على المراد.

فقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ها هنا وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ فهذا هو المحل القابل والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٦٩-٧٠]، أي حي القلب.

وقوله: ﴿ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: وجَّه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا هو شرط التأثُّر بالكلام، وقوله: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة: استمع لكتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثر وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمُّله.

فإذا حصل المؤثر وهو «**القرآن**»، والمحل القابل «**وهو القلب الحي**»، ووجد الشرط وهو «**الإصغاء**»، وانتفى المانع وهو «**اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب**»، وانصرافه عنه إلى شيءٍ آخر حصل الأثر وهو «**الانتفاع بالقرآن والتذكر**»[(١)].

قواعد التدبُّر

١- الاستعاذة

تأتي الاستعاذة من الشيطان الرجيم قبل البدء في قراءة القرآن دفعًا لوسوسته وكيده حيث يحرص الشيطان حرصًا شديدًا على شغل القارئ وتشتيت عقله وتذكيره بأمور تأخذ بعقله بعيدًا عن القرآن، وقد يظل هذا الكيد حتى يغلق المرء المصحف وينصرف سريعًا وما قرأ شيئًا ولذا شرعت الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل تلاوة آيات الكتاب الحكيم، فقال ربنا العلي العظيم في كتابه الكريم: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-٩٩].

والاستعاذة هي الاعتصام بالله واللجوء إليه والاحتماء به سبحانه من الشيطان الرجيم وكيده.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور، يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمره به الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلي منه القلب ليصادف الدواء محلًا خاليًا فيتمكن منه ويؤثر فيه كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه.

---

(١) «الفوائد» ص[١٧-١٨] ط دار إحياء الكتب العربية، «التفسير القيم» (٣٦٣-٣٦٤) ط مكتبة الصفا.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب كما أن الماء مادة النبات، والشيطان يحرق النبات أولًا فأولًا، فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأُمِرَ أن يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ منه لئلا يفسد عليه ما يحصل بالقرآن.

ومنها: أن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورَجِلِه حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ منه.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته[(١)]، والسلف كلهم على أن المعنى إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم الصلاة والسلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليه فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا وربما جمعها له فكان من أهم الأمور الاستعاذة بالله تعالى منه.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذٍ ليقطعه عنه، وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر، فالشيطان بالرَّصَدِ للإنسان على طريق الخير، ولاسيما عند قراءة القرآن فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولًا، ثم يأخذ في السير كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه ثم اندفع في سيره[(٢)].

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢].

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٠١-١٠٢) باختصار ط مكتبة الإيمان.

ويقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم وهذا أمر ندب ليس بواجب حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة، والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه ويمنعه من التدبُّر والتفكّر[(١)].

٢- قطع الشواغل وتركيز الانتباه:

قراءة التدبر ينبغي أن تكون في جو نظيف ليس فيه ما يشغل القلب ويعرقل الفهم كأن يكون مكانًا به الأصوات العالية والضوضاء الصاخبة، وكأن يقرأ في حال شدة التعب والإرهاق، وكأن يقرأ وهو يدافع النوم، وكأن يقرأ بين متحدثين يقطع الواحد منهم عليه قراءته بين الحين والآخر، وإنما ينبغي أن يفرغ القلب والذهن حتى يعي معاني القرآن ويربط بين الآيات وتصل الموعظة إلى قلبه، قال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب:٤]، وهذا من توقير القرآن ومن أهم أسباب تدبره وفهمه، ولا يفهم من ذلك النهي عن القرءة مطلقًا في مثل هذه المواطن لاسيما وقد يحتاج المرء في بعضها إلى أن يأنس بالقرآن وتلاوته، وإنما الذي نعنيه القراءة بتدبر وفهم وحصول الموعظة في القلب، ولذلك كانت القراءة في الليل مظنة حضور القلب وانقطاع تلك الشواغل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل:٦]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: وقوله ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ هو أجدر أن يفقه القرآن[(٢)].

ويقول ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مدارسة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن في كل ليلة من رمضان: المقصود من التلاوة الحضور والفهم لأن الليل مظنة ذلك لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية[(٣)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٢-٤٢٣) ط التوفيقية.

(٢) رواه أبو داود برقم [١٣٠٤]، وحسنه الألباني.

(٣) «فتح الباري» (٩/ ٤٥) ط دار المعرفة.

قال الحسن: إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار(١).

قال السَّرِي السَّقَطي: رأيت الفوائد تَرِدُ في ظلام الليل.

٣- حسن الاستماع والإصغاء:

قال ربنا جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣-٢٠٤]

يقول القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدىً ورحمة أرشد إلى طريق الفوز بما انطوى عليه من منافعه الجليلة، أي: وإذا قرئ القرآن الذي ذكرت خصائصه فاستمعوا له أي: أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه، وتتدبروا مواعظه، وأنصتوا لقراءته حتى تنقضي إعظامًا له واحترامًا لكي تفوزوا بالرحمة التي هي أعظم ثمراته(٢).

ويقول الشيخ رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه دلالة على الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن والحصانة من نزغ الشيطان، وهي الاستماع له إذا قرئ والإنصات مدة القراءة، والاستماع أبلغ من السمع؛ لأنه إنما يكون بقصدٍ ونية وتوجيه الحاسة إلى الكلام لإدراكه والسمع ما يحصل ولو بغير قصد، والإنصات السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغلًا من الإحاطة بكل ما يقرأ فمن استمع وأنصت كان جديرًا بأن يفهم ويتدبر وهو الذي يرجى أن يُرحم(٣).

إن شأن المؤمن المحب لربه أن يصغي إلى كلامه بكل شغف وحرص، وأن يستمع إليه بكل أدب وإجلال وتوقير فبهذا يرحم ويرفع على الناس ويقدم.

---

(١) «التبيان في آداب حملة القرآن» ص [٤١].

(٢) «محاسن التأويل» لجمال الدين القاسمي (٥/ ٢٤٩) ط دار الحديث بالقاهرة.

(٣) «تفسير المنار» (٩/ ٤٥٧) ط دار الكتب العلمية.

ومن أنفع الأمور في التدبر أن يصغي المرء سمعه لتلاوة قارئ خاشع يبدو الخشوع والخشية والتأثير في قراءته، وكم من معاني تصل إلى القلوب وتأخذ الألباب من خلال سماع المرء لتلاوة قارئ متقن متدبر مؤثر بقراءته، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حيث قال لابن مسعود: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**».

وعن جابر بن عبد الله مرفوعًا «**إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله**»[(١)].

والإصغاء والاستماع عند تلاوتك أنت لكلام ربك، وعندما تسمع القرآن من غيرك، فاللهم ارزقنا حسن الأدب مع كتابك وحسن الإصغاء والاستماع إليه.

٤- حضور القلب واستحضار عظمة الرب:

من أهم أسباب تدبر القرآن والتأثر به حضور القلب ومشاهدته لمعاني الآيات، ومعايشته لأحداث القصص القرآني، وتأمل مشاهد العذاب والنعيم، ومعرفة ما تضمنته آيات القرآن من حكم وأحكام وأخبار وعبر، فيلتقي نور القرآن مع نور الفطرة في القلب فيكون نورًا على نور، فيزيل ويمحو حينئذٍ كل ظلمة وشبهة وشهوة، ويبقى القلب طاهرًا نقيًا يبصر الحق ويؤثره، ويرفض الباطل ويمجُّه ويدفعه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صاحب القلب الحي الواعي يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن فيجدها كأنها كتبت فيه فهو يقرؤها عن ظهر قلب[(٢)]، صاحب القلب الحي يقبل على معاني القرآن بكل ما يملك من طاقة فيظل فيها مفكرًا ومتأملًا متدبرًا لا يلتفت عن القرآن إلى غيره؛ لأنه قد استحضر عظمة ربه الذي يخاطبه بهذا القرآن، وإذا كان يعد من سوء الأدب بين البشر أن يكلمك أحد الناس وأنت معرض بوجهك عنه؛ ملتفت بعينك إلى غيره، فكيف يكون الحال إذا خاطبك ربك وأنت منشغل عنه معرض عن خطابه؟! كيف لعاقل أن ينصرف فؤاده عن كلام الله حين

---

(١) رواه ابن ماجه برقم [١٣٣٩]، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجة» برقم [١١٠١].

(٢) «الفوائد» ص[١٨].

يتلـوه إلى ترهات وسـفاهات؟! وكيف لصـادق الإيمان أن يعرض عـن خطاب ربه له؟! وكيف لمحب أن يلتفت عن كلام خالقه وفاطره وسيده ومولاه؟!

يقول ابن القيم: إذا أردت الانتفاع بالقرآن؛ فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١).

٥- معرفة معاني المفردات والكلمات:

كان العـرب أصحاب دراية عالية باللغة وأهل تفوق في البيان والفصاحة، وخبراء بالبلاغـة وأصولهـا لذلك كانوا يفهمون القـرآن فهمًا واضحًا جليًا، ومـا احتاجوا إلى أن تفسر لهم معاني كلماته، ولم يؤثر عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفسير كامل للقرآن، إنما هي قضايا معدودة اشتبه فيها الفهم على الصحابة فبين لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحق والصواب، وأما في عصرنا هذا فقد سرت العجمة في الألسنة، وغاب علم اللغة عن أكثر الناس وما يعرف أحدٌ من الناس اليوم أصول البلاغة العربية إلا قلة من الدارسـين لها، وصارت كثير من كلـمات القـرآن مجهولة المعنى لدى القاعدة العريضة من المسـلمين، وهـذا لا يعفيهم من ضرورة الفهم والتدبر لآيات القرآن، ولا يُسوِّغ لهم الرضا بهذا الحال المزري ولهذا أقترح بعض البنود لعلها تكون مساهمة متواضعة في تجاوز هذه الأزمة.

(أ) يمكنـك اصطحـاب كتيِّب فيـه معاني المفردات الغريبة في سـور القرآن، ومن ذلك كتاب صغير الحجم كبير النفع وهو (كلمات القرآن تفسـير وبيان) للشـيخ حسـنين مخلـوف رَحِمَهُ اللهُ، وهنـاك بعض المصاحف التي كتبت بهامشـها معـاني الكلمات فاحرص على مثل هذا حتى إذا مرَّت بك كلمة لا تعرف معناها نظرت في الهامش إلى معناها وهذه النوعية من المصاحف كثيرة متوفرة بحمد الله.

---

(١) «الفوائد» ص [١٧].

(ب) عقد حلقات تلاوة في المسجد ويبيَّن فيها معاني الكلمات، ثم يسأل من تولى بيانها الجلساء في معانيها قبل قيامهم وتفرقهم من ذلك المجلس.

(جـ) أن يقرأ إمام المسجد في صلاة الصبح أو العشاء سورة كاملة في أيام متتابعة وبعد انتهاء كل صلاة يبين للمصلين معاني الكلمات الغريبة مع سؤالهم في معاني الكلمات التي سبق بيان معانيها في الأيام الماضية، فإذا انتهى من سورة بدأ في سورة أخرى، والتوفيق من الله.

(د) يمكن عقد مسابقة في معاني الكلمات وذلك بأن تطرح مذكرة ورقية فيها خمسمائة كلمة مثلًا ثم يجرى عليها اختبار شفهي أو تحريري، فنكون بذلك ساهمنا في أن يحفظ كثير من الناس معاني كلمات القرآن الكريم، والموفق من وفقه الله، وبالإخلاص والاستعانة بالله ينجح العمل ويؤتي ثمرته بإذن الله.

٦- معرفة أساليب القرآن:

لابد للقارئ الحريص على تدبر القرآن أن يعرف أساليب القرآن، وتراكيب الجمل فيه، حيث إن للقرآن أسلوبًا مخالفًا لجميع أساليب العرب ومن أساليب القرآن ما يلي:

أولًا - الحذف البلاغي:

هناك ألوان عديدة من الحذف لا تكاد توجد في غير القرآن، وذلك مثل حذف تركيب كامل، وكما أنه لو نزعت كلمة من كلمات القرآن لم يوجد في كلام العرب ما يحل محلها، فكذلك أقول إن كل محذوف في القرآن ما كان ينبغي إلا أن يكون محذوفًا، وفي الإيجاز بالحذف هدف تربوي في غاية الأهمية، فلو تصوَّرنا قارئًا يرتل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، أفلا تتضاعف يقظته إذا كان يقظًا، أو ينتبه إن كان غافلًا أو يتجدد نشاطه إن كان قد فتر نشاطه بحثًا عن الجواب المحذوف الذي تسكن إليه نفسه ويطمئن إليه قلبه، إن الحذف

بمثابة الأسئلة التي يلقيها المعلم على تلاميذه أثناء الدرس ليجدد نشاطهم ولينبههم إن كانوا عنه غافلين[١].

وهذه أمثلة للحذف البلاغي في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، «فَنَظِرَةٌ» خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير فالأمر أو الحكم نظرة، وحذف المبتدأ لأن الكلام موجه إلى بيان الخبر ليتلقى بما ينبغي أن يتلقى به من الامتثال والقبول.

قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور: ١]، كلمة «سُورَةٌ» خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه، وقد حذف المبتدأ اختصارًا لدلالة الحال عليه، ولتتوفر العناية بالخبر.

قال تعالى: ﴿لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٢]، كلمة (خصمان) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: نحن خصمان، وقد حذف المبتدأ لضيق المقام فحين تسوروا المحراب دخلوا على داود ففزع منهم ﴿لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ﴾ إسراعًا لَبِثِّ الطمأنينة في قلبه.

قال تعالى: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]، والتقدير أقرآن أعجمي ورسول عربي؟ فحذف المبتدءان لظهور أمرهما واشتهارهما حتى لم يكن ثمة ما يدعو لذكرهما.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، أي: وأنا عجوز فكيف ألد، حذف المبتدأ لضيق المقام لعظم المفاجأة بالبشرى.

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢]، أي كل واحدة منها كالقصر فيكون من باب، قال تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤]، أي كل واحد منهما.

---

(١) «الحذف البلاغي في القرآن الكريم» ص[٣٨-٣٩] ط مكتبة القرآن بالقاهرة والمحذوف المقدر في الآية: (لكان هذا القرآن) جوابًا للو.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، والتقدير يخوف الناس، أولياءه أي: أتباعه وأولياؤه الذين يخوف الناس منهم هم الطغاة، وقد أفاد الحذف تهوين شأن الطغاة ومن يرضخ لهم وغضًا من أقدارهم إذ المقام مقام تحريض.

قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤]، والتقدير: نعم إن لكم لأجرًا «وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ » فحذف المعطوف عليه لأن حرف الإيجاب «نَعَمْ » سدَّ مسدَّه وأفاد معناه(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ٣٠]، يقول ابن القيم: ومثل هذا الحذف من أحسن الكلام لأن المراد أنك لو رأيت ذلك لرأيت هولًا عظيمًا، وهذه عادة الناس في كلامهم إذا رأوا أمورًا عجيبة وأرادوا أن يخبروا بها غائبًا عنها يقول أحدهم: لو رأيت ما جرى يوم كذا بموضع كذا، ومنه قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فالمعنى في أظهر الوجهين: لو يرى الذين ظلموا في الدنيا إذ يرون العذاب في الآخرة، والجواب محذوف ثم قال: أن القوة لله جميعًا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ ﴾ [سبأ: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الأنفال: ٥٠]، أي لو ترى ذلك وما فيه(٢).

ومن ذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، أي لعلكم تتقون المحارم عمومًا،

---

(١) «الحذف البلاغي في القرآن الكريم» بانتقاء وهذا الكتاب رسالة ماجستير أعدها صاحبها وأتمها ومات قبل أن تناقش واسمه مصطفى أبو شادي رحمه الله وغفر له.

(٢) «التبيان في أقسام القرآن» ص [١٢] ط التوفيقية.

ولعلكم تتقون ما حرم الله على الصائمين من الزور ومن كل الأحوال والصفات السيئة الخبيثة، ولعلكم تتصفون بصفة التقوى وتحصلون على كل ما يقيكم مما تكرهون.

ومن هذا الحذف ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فَيُدِّل على أن المراد لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه وكل ما علَّمكُموه وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، ولعلكم تذكرون فلا تنسون ولا تغفلون، فتكونون دائمًا متيقظين مرهفي الحواس تحسون كل ما تمرون به من سنن الله وآياته فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية.

ومن الحذف البلاغي قوله تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر: ١]، حذف المتكاثر به ليعم جميع ما يقصد الناس فيه المكاثرة من الرياسات والأموال والجاه والضيعات والأولاد وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس الغافلة عن حكمة الله وسننه فيلهيها ذلك عن طاعة الله.

ثانيًا- ومن أساليب القرآن:

أن الله تعالى يختم الآيات بأسمائه الحسنى وتكون هذه الأسماء هي المطابقة لمعنى الآية فهناك فرق بين استعمال لفظ ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولفظ ﴿ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ و﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ و﴿ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ختام الآيات بأسماء الله الحسنى: ليدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم، وهذه قاعدة لطيفة نافعة عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها تجدها في غاية المناسبة، وتدلك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته ومرتبط بها، وهذا بابٌ عظيمٌ في معرفة الله تعالى ومعرفة أحكامه، وهو من أجل المعارف وأشرف العلوم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩]، فذكر إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسماوات، يدل على إحاطته بما فيها من العوالم

العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه كما قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]، فخلقه للمخلوقات وتسويتها على ما هي عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد من أكبر الأدلة العقلية على علمه فكيف يخلقها وهو لا يعلمها.

وقال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧]، وختم كثيرًا من الآيات بهذين الاسمين ﴿ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ بعد ذكر ما يدعو به العبد إلى التعرض من رحمته ومغفرته وتوفيقه وحلمه حكم جليلة لكل أحد، وأنه لما كان هو التواب الرحيم أقبل بقلوب التائبين إليه ووفقهم للأخذ بالأسباب التي ترجعهم إلى الفطرة السليمة التي يعرفون بها نعمة ربهم، فيقدرونها ويشكرونها ويستجيبون لما يدعوهم بها إليه سبحانه، فيرجعون في كل شئونهم وأمورهم إلى ربهم ويزيدهم من فضله ويتوب عليهم ثم يغفر لهم ويرحمهم، فتاب عليهم أولًا بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب عليهم ثانيًا حين قبل متابهم وأجاب سؤالهم.

قال تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، أي فإذا عرفتم عزته وهي قهره وغلبته، وقوته وامتناعه، وعزمتم حكمته وهي وضعه الأشياء في موضعها وتنزيلها محالها أو جب لكم ذلك الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم، لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة، وهو المصر على الذنب مع علمه، وأنه ليس لكم امتناع عليه ولا خروج عن حكمه وجزائه لكمال قهره وعزته.

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾ لم يقل: فاعفوا عنهم أو اتركوهم بل قال: ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٤]، يعني إذا عرفتم ذلك وعلمتموه عرفتم أن من تاب وأناب فإن الله يغفر له ويرحمه، فيدفع عنه العقوبة ويمده بالقوة على الطاعة فكذلك فاعفوا عنه إذا استحق العفو.

ولما ذكر الله عقوبة السارق قال في آخرها: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، أي: عَزَّ وَحَكَمَ، فقطع يد السارق، وعَزَّ وحكم فعاقب المعتدين شرعًا وقدرًا وجزاءًا.

ولما ذكر المواريث وقدرها في سورة النساء، قال تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]، فكونه عليمًا حكيمًا يعلم ما لا يعلم العباد ويضع الأشياء مواضعها فاخضعوا لما قاله وفصله وحكم به في توزيع الأموال على مستحقيها الذين يستحقونها بعلم الله وحكمته(١).

ثالثًا- ضرب الأمثال:

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وهذا النوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمة كالتوحيد وحال الموحد، والشرك وحال أهله، والأعمال العامة الجليلة ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة وتمثيلها بالأمور المحسوسة ليصير القارئ كأنه يشاهد معانيها رأي عين، وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه بهم ومن أمثلة ذلك ما يلي:

مثَّل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوب الناس بالأرض والأودية وأن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأرض.

مثَّل الله كل التوحيد بالشجرة الطيبة التي أكلها دائمٌ كل حين بإذن ربها؛ لأن شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها؛ لأنها غرس معرفة وتصديق وتفكَّر وتدبُّر لآيات الله وتؤتي أكلها تقوى وإيمانًا وإرادة لموجبها وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق الزكية والأعمال الصالحة والهدى المستقيم، دائمة في نفع صاحبها وانتفاع الناس به وهي صاعدة إلى السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه.

(١) «القواعد الحسان لتفسير القرآن» [٤٣-٤٦] القاعدة رقم [١٩].

مثَّل الله الشرك والمشرك الذي اتخذ مع الله إلهًا يتعزز به بأن اتخاذه هذا في ضعفه ووهنه كالعنكبوت اتخذت بيتًا وهو أوهن البيوت وأوهاها فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفًا إلى ضعفها، كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه وليًا نصيرًا من دون الله إلا ضعفًا، لأن قلبه انقطع عن الله ومن انقطع قلبه عن الله حله الضعف من كل وجه.

مثَّل الله عمل الكافر بالسراب الذي يحسبه الظمأن ماء فحين يأتيه وقد اشتد به الظمأ وأنهكه الإعياء يجده سرابًا.

ومثَّله برماد الشيء المحترق فجاءته الرياح فَذرَتْه فلم تُبْقِ منه باقية، وهذا مناسب لحال الكافر وبطلان عمله، فإن كفره ومعاصيه بمنزلة النار المحرقة لكل ما يأتي من عمل فيدعه ترابًا يظنه بجهله وغبائه وتقليده الأعمى أنها أعمال صالحة فإذا جاءها يرجو ثوابها جعلها الله هباءً منثورًا[(١)].

والأمثلة في القرآن كثيره مشهورة لكن قلَّ من تفكر فيها وعقلها وفهمها.

ومن أساليب القرآن الالتفات، وقد سبقت الإشارة إليه، ومنها اختلاف القصة باختلاف السياق الذي وردت فيه، وغير ذلك كثير من أساليب القرآن فمن عرفها سهل عليه تدبر القرآن وأخذ العبرة والعظة منه والله المستعان.

رابعًا- حروف الجر تتناوب:

تستعمل حروف الجر بعضها مكان بعض في لغة العرب وقد جاء ذلك في كتاب الله تعالى وهذه أمثلة وشواهد[(٢)].

تستعمل «في» مكان «على».

---

(١) «القواعد الحسان بتصرف وانتقاء» ص[٥٤-٥٩] القاعدة رقم [٢٢].

(٢) إذا أردت أن تعرف شواهد ذلك في لغة العرب فارجع إلى كتاب «تأويل مشكل القرآن لابن قتيبه» ص [٢٩٨] ط دار الكتب العلمية ومنه اختصرتُ هذه الشواهد وانتقيتُها.

قال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، أي: على جذوع النخل.

ومن ذلك «الباء» مكان «عن»، قال تعالى: ﴿فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، أي: فاسأل عنه.

وتستعمل «عن» مكان «الباء» قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣]، أي بالهوى.

وتأتي «اللام» مكان «على»، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢]، أي: لا تجهروا عليه بالقول، والعرب تقول: سقط فلانٌ لفيه أي على فيه.

وتأتي «إلى» مكان «مع»، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢]، أي مع أموالكم.

وتأتي «اللام» مكان «إلى»، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤-٥]، أي: أوحى إليها، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، أي: إلى هذا.

وتأتي «من» مكان «الباء» قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، أي: بأمر الله، وقال تعالى: ﴿يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، أي: بأمره.

وتأتي «الباء» مكان «من» تقول العرب: شربت بماء كذا وكذا، أي: من ماء كذا وكذا، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٨]، قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، ويكون بمعنى يشربها عباد الله ويشرب منها.

وتأتي «من» مكان «على»، قال تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، أي: على القوم.

وتأتي «عن» مكان «من»، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى: ٢٥]، أي من عباده، تقول: أخذتُ عنك كذا، أي منك.

٧- تشغيل الحواس والجهر بالتلاوة:

القراءة الصامتة يحصل فيها شرود الذهن وانشغال الخاطر كثيرًا لذلك فإذا رفع القارئ صوته فكان في منزلة وسط كان ذلك أدعى للتدبر وجمع القلب والعقل على المعاني، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهر به**»(١).

ومما يدل على العناية بالجهر بالقراءة ما رواه أبو قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج ليلة، فإذا بأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي يخفض من صوته ومرَّ على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصلي رافعًا صوته، قال: فلما اجتمعا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يا أبا بكر؟ «**مررت بك وأنت تصلي تخفض من صوتك؟**» قال: قد أسمعت من ناجيت يا رسول الله، وقال لعمر: «**مررتُ بك وأنت تصلي ترفع من صوتك؟!**» فقال: يا رسول الله أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئًا**» وقال لعمر: «**اخفض من صوتك شيئًا**»(٢).

٨- تكرار الآية إذا لم يفهم معناها حتى تفهم:

إذا مرت بالقارئ المتدبر لكلام الله آية لم يفقه معناها فلا بأس من تكرارها، وإذا مرت به آية أثرت في قلبه وأحدثت فيه موعظة وعبرة فلا بأس من تكرارها من أجل فهم المعنى وتوكيد الأثر الحاصل من تلاوتها، فهذا ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورد عنه أنه ردد قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وعن سعيد بن جبير أنه ردد قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا

(١) رواه البخاري برقم [٧٥٢٧].

(٢) رواه أبو داود رقم [١٣٢٩]، وصحح الألباني في «صفة الصلاة» ص[١٠٩].

تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وردد قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ [غافر: ٧٠-٧١]، وروي عنه أنه أحرم بنافلة فاستفتح قول الله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار: ١]، فلم يزل فيها حتى نادى منادي السحر.

وعن عامر بن عبد قيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قرأ ليلة سورة المؤمن (غافر) فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ [غافر: ١٨]، فلم يزل يرددها حتى أصبح، ونقل عنه أنه قرأ قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام: ٢٧]، فجعل يبكي ويرددها حتى أسحر.

وقال محمد بن كعب: لأن أقرأ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ و﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ أرددهما وأتفكر فيهما أحب إلى من أن أبيت أهذ القرآن.

وقام تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بآية حتى أصبح، وهي قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الجاثية: ٢١][(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصبح، ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإذا قرأه بتفكر حتى إذا مرَّ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهُّم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن[(٢)].

ويقول ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وليلعم أن ما يقرأه ليس كلام بشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه فإن التدبُّر هو المقصود من القراءة وإن لم يحصل التدبر إلا بترديد الآية فليرددها[(٣)].

---

(١) انظر الآثار في: «التبيان» للنووي ص [٦٢]، و«مختصر قيام الليل» للسمرقندي ص [١٤٨]، و«تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٧٠٧-٨٤٨).

(٢) «مفتاح دار السعادة» ص[٤٠٢].

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» ص [٦٨] ط دار البيان.

٩- معايشة المعاني وترتيب الآيات:

وذلك بأن يستشعر إذا قرأ قصة من قصص الأنبياء أو مشهدًا من مشاهد الآخرة كأنه حاضر فيه ينفعل بما يراه ويحس بما يشاهده، فإذا قرأ آية في وصف النار استشعر حرها وسعيرها وارتجف قلبه من هولها، وإذا قرأ آية في ذكر القيامة فزع قلبه واهتز فؤاده وارتعدت فرائصه؛ لأنه يؤمن أن هذا واقع بلا ريب حاصل بلاشك فإذا كنت فيه فكيف يكون حالي وكيف يكون موقفي؟ وإذا قرأ آية في وصف الجنة تلذذ تنعيمها وارتاع قلبه بالشوق إليها، وظل في تلاوته كأنه ينظر إليها، وإذا قرأ قصة من قصص الأنبياء اشتد حزنه من تكذيب قومه له، وإعراضهم عن دعوته، واشتد فرحه بعد ذلك لنصرة الله لذلك النبيِّ وحفظه له ولطفه به وانتقامه له من المكذبين فيزداد حبه لأنبياء الله ورسوله ويزداد تمسكًا بهديهم، والاهتداء بهم في دروب الحياة المعاصرة، إذ إن التاريخ يعيد نفسه: قال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فُصِّلَتْ :٧٥].

وهذا هو نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلمنا هذا المعنى في تلاوة القرآن فكان إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ، كما في صحيح مسلم من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صليت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسِّلًا، إذا مَّر بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ»[(١)].

وعن حفصه أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها[(٢)].

(١) رواه مسلم برقم [٧٧٢].

(٢) رواه مسلم برقم [٣٧٣].

وسئل مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن رجل قرأ البقرة وآل عمران ورجل قرأ البقرة قراءتهما واحدة وركوعهما وسجودهما وجلوسهما أيهما أفضل؟ فقال: الذي قرأ البقرة ثم قرأ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، وفي رواية قال: إن أحب الناس إلى الله أعقلهم عنه(١).

وقرأ علقمة -وكان حسن الصوت- على ابن مسعود فكأنه عجل فقال عبد الله: فداك أبي وأمي رتل فإنه زين القرآن.

وعن ابن أبي ذئب عن صالح قال: كنتُ جارًا لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وكان يتهجَّد من الليل فيقرأ الآية ثم يسكت قدر ما حدثتك وذلك طويل ثم يقرأ قلت: لأي شيءٍ فعل ذلك؟ قال: من أجل التأويل يفكر فيه(٢).

١٠- مدارسة القرآن:

من أهم أسباب التدبر والفهم للقرآن معرفة تفسيره وأحكامه وأوامره ونواهيه، فنحتاج في هذا الآن إلى تكثيف المدارسة والمباحثة المنهجية المنضبطة بقواعد التفسير المرضية الموروثة عن السلف، نريد تدارس القرآن في المساجد والمعاهد، في الكليات والحلقات، للرجال والنساء وللصغار والكبار كلٌّ بحسب استيعابه، نريد دعاة موفقين يعقد درسًا في التفسير ولو قراءة من كتاب لدقائق، ككتاب «**تفسير السعدي**» وكتاب «**المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير**»، وكتاب «**أيسر التفاسير للجزائري**» وغير ذلك، نريد ندوات ودورات تقام لتفسير القرآن أو تناول بعض السور بالشرح والتفسير ويراعى فيها سهولة طرح وتيسير الفهم، وإسقاط المعاني على واقع الناس في حياتهم ولكل حريص على تحقيق هذه المدارسة وترسيخها في الأمة نقول له: أبشر بثواب الله لك فما قرئت آية ولا فهم معنى إلا وهو في ميزانك، ما انعقد مجلس يذكر فيه اسم الله إلا وهو

---

(١) «التبيان» ص [٦٥].

(٢) «مختصر قيام الليل» للسمرقندي ص [١٤٩].

مضاف إلى حسناتك وليكن في قلبك وعقلك وخاطرك قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[(١)].

ولنتأمل هذا المعنى، قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين يقرؤننا، عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا: فتعلمت القرآن والعلم والعمل جميعًا.

وفي رواية أخرى: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها[(٢)].

وقال مجاهد بن جبر رَحِمَهُ اللَّهُ: أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل.

وقال الحسن البصري: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يُعْلَمَ فيما أنزلت وما يعني بها.

وقال الشعبي: رحل مسروق إلى الرقة في تفسير آية، فقيل له إن الذي يفسُّرها رحل إلى الشام، فتجهَّز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يمنعني إلا مهابته فسألته فقال: هن حفصة وعائشة[(٣)].

وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرؤون القرآن ولا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتابٌ من ملكهم ليلًا وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ولا يدرون

(١) رواه مسلم برقم [٢٦٩٩].

(٢) «مقدمة تفسير ابن كثير» (١/ ١٤) ط التوفيقية.

(٣) رواه البخاري برقم [٥١٩١]، ومسلم برقم [١٤٧٩].

ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب[١].

١١- قراءة القرآن بقصد العمل به:

المؤمن الذكي العاقل التقي من يقرأ القرآن ويعلم حال قراءته أن هذا خطاب الله له، وأمر من الله إليه، فلذا يتلو القرآن ليؤدب به نفسه ويهذب به خلقه، ويزيد به علمه، ويسعد به روحه، ويطمئن به قلبه، همته متى أكون من المتقين، متى أكون من الخاشعين، متى أكون من الصابرين، متى أزهد في الدنيا، متى أنهى نفسي عن الهوى، قال الحسن البصري: إن أولى الناس بهذا القرآن من اتبعه وإن لم يكن قد قرأه[٢].

وجاء رجل بابنه إلى أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقال: إن ابني هذا قد جمع القرآن فقال: اللهم غفرًا، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع[٣].

والمقصود أن يقرأ القرآن بنية البحث عن علم ليعمل به فيقف عند آياته فينظر ماذا يريد منه، هل في الآية أمرٌ أم نهي؟ فضيلة يتحلى بها المؤمن أم خطر يحيق به يجب الحذر منه؟ إنها قراءة يقظة وتلاوة حية يعي فيها العبد ماذا يقرأ، ولماذا يقرأ ومن الذي يخاطبه، ويستحضر بذلك أنه يناجي ربه جَلَّ جَلَالُهُ، عن عبد الله بن المبارك قال: سألت سفيان الثوري قلت: الرجل إذا قام إلى الصلاة أي شيءٍ ينوي بقراءته وصلاته؟ قال: ينوي أنه يناجي ربه[٤].

---

(١) انظر هذه الآثار في: «تفسير القرطبي» (١/ ٤٣) ط التوفيقية.

(٢) «قاعدة في فضائل قراءة القرآن» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص [٥٩]، نقلًا عن «مفاتح تدبُّر القرآن» ص [٤٠] ط دار الصديق.

(٣) المصدر السابق ص [٥٩].

(٤) «تعظيم قدر الصلاة» ص [٩٢].

هدي السلف في تدبر القرآن

إن مما يبعث القلب على تدبر القرآن، ويدفع النفس إلى التفكر فيه مطالعة حال السلف والنظر في سيرهم وكيف كان تدبرهم للقرآن، وكيف كان شغفهم به وحرصهم عليه، ومداومتهم على تلاوته وتدبره، وكيف كان تأثرهم بآياته وانفعالهم بحكمه وعظاته، وكم كان حرصهم عظيمًا على معرفة مراد ربهم منهم، وما كان هذا إلا لصدقهم في إيمانهم، وعظمة انتمائهم لدينهم، ورسوخ اليقين في قلوبهم، فاللهم كما أنعمت عليهم بهذا الفضل فإنا نسألك من فضلك العظيم ورحمتك الواسعة يا غني يا كريم يا ذا الفضل العظيم.

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أكثر أنصاريٍّ بالمدينة مالًا، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قام أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، إن الله يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وإن أحب أموالي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بخٍ، ذلك مالٌ رابح قد سمعتُ ما قلت فيها، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**» فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه(١).

عن أبي ذئب عن صالح قال: كنت جارًا لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكان يتهجَّد من الليل فيقرأ الآية ثم يسكت قدر ما حدثتك، وذلك طويل، ثم يقرأ قلت: لأي شيءٍ فعل ذلك؟ قال: لأجل التأويل يفكر فيه(٢).

---

(١) رواه البخاري [٢٧٦٩]، ومسلم [٩٩٨].

(٢) «مختصر قيام الليل» ص [١٤٩].

قال ابن أبي مليكة: سافرت مع ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من مكة إلى المدينة فكان يقوم نصف الليل فيقرأ القرآن حرفًا حرفًا ثم يبكي حتى تسمع له نشيجًا(١).

وعن عكرمة قال: جئت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يبكي، وإذا المصحف بين يديه في حجره فأعظمت أن أدنو منه، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلستُ فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس جعلني الله فداك؟ فقال: هؤلاء الورقات، وإذا هو في سورة الأعراف وذكر له أصحاب السبت ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذُكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها قال: قلت: جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، قال: فأمر لي فكسيتُ ثوبين غليظين(٢).

وروي أن عبد الله بن رواحة بكى فبكت امرأته فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: أبكاني الذي أبكاك، قال: أبكاني أني وارد النار فلا أدري أناج منها أم لا؟ وإنما عني بالورود ما قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

وعن ابن أبي مليكة قال: إن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت لا تسمع شيئًا لا تفهمه إلا راجعت فيه حتى تفهمه وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من حوسب عُذِّب» قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فقلت: أليس يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما ذلك العرض، وليس أحدٌ يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب**»(٣).

---

(١) المصدر السابق [١٣١]

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٣٥٩) ط التوفيقية.

(٣) «الفتح» (١/ ١٩٧) ط دار المعرفة.

يقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد وقع نحو ذلك لغير عائشة، ففي حديث حفصة أنها لما سمعت «لا يدخل النار أحدٌ شهد بدرًا والحديبية» قالت: أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١]، فأجابها بقوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ [مريم: ٧٢]، وسأل الصحابة لما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أينا لم يظلم نفسه؟ فأجيبوا بأن المراد بالظلم الشرك، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن هذه القلوب أوعية فأشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره.

قالت أم ولد الحسن البصري: رأيته فتح المصحف فرأيت عيناه تسيلان وشفتاه لا تتحركان.

ويقول إسحاق بن إبراهيم الطبري عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانت قراءته حزينة شهية بطيئة مترسلة كأنه يخاطب إنسانًا، وكان إذا مرَّ بآية فيها ذكر الجنة يردد فيها ويسأل.

وقال إبراهيم بن الأشعث رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما رأيت أحدًا كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله، أو ذُكر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من يحضره.

قال إبراهيم بن الأشعث أيضًا: كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١]، بكى وقال: اللهم لا تبتلنا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا.

وقال أحمد بن أبي الحواري: إني لأقرأ القرآن وأنظر في آية فيحير عقلي بها، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشيءٍ من الدنيا وهم يتلون كلام الله!! أما إنهم لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه فتلذذوا به، واستحلوا المناجاة لذهب عنهم النوم فرحًا بما قد رزقوا.

ويقول مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عرضت المصحف على ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها.

ويقول أبو عبد الله بن بشر القطان: ما رأيت رجلًا أحسن انتزاعًا لما أراد من آي القرآن من أبي سهل بن زياد وكان جارنا، وكان يديم صلاة الليل وتلاوة القرآن، فلكثرة درسه صار القرآن بين عينيه ينتزع منه ما شاء من غير تعب.

قال بعض السلف: إني لأفتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر.

وقال بعض السلف أيضًا: آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعد لها ثوابًا.

وقال أبو سليمان الداراني: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال، ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها.

وعن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبُّر فيها.

وقال بعضهم: لي في كل جمعة ختمة وفي كل شهر ختمة وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد.

وقال بعض القراء قرأت القرآن على شيخ لي ثم رجعت لأقرأ ثانيًا فانتهرني، وقال جعلت القرآن عليَّ عملًا، اذهب فاقرأ على الله عَزَّوَجَلَّ فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك.

مثال للتدبر العملي:

لقد جمعت في القرآن المعاني العظيمة في اللفظ القليل وإن شئت أن تعرف هذا المعنى واقعيًا، فتدبر قوله سبحانه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، انظر كيف جمع له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الكلام كل خلق عظيم لأن في أخذ العفو صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالعرف تقوى

الله وصلة الأرحام وصون اللسان عن الكذب وغض الطرف عن الحرمات وإنما سُمي هذا وما أشبهه عرفًا ومعروفًا لأن كل نفس تعرفه وكل قلبٍ يطمئن إليه، وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مماداة السفيه ومنازعة اللجوج.

كذلك تدبر قول الله تعالى في ذكر الأرض: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٣١]، تأمَّل كيف دلَّ بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتًا ومتاعًا للأنام من العشب والشجر والحب والثمر، والحطب واللباس والنار والملح، لأن النار من العيدان والملح من الماء وينبئك أنه أراد ذلك قوله: ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [النازعات: ٣٣].

كذلك تدبر قول ربك جَلَّجَلَالُهُ في ذكر نبات الأرض: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ [الرعد: ٤]، انظر كيف دل على نفسه ولطفه ووحدانيته، وهدى للحجة على من ضل عنه، لأنه لو كان ظهور الثمرة بالماء والتربة لوجب في القياس ألا تختلف الطعوم ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذانبت في مغرسٍ واحد وسقي بماء واحد، ولكنه صنع اللطيف الخبير.

وكذلك تدبر قوله تعالى في وصف خمر أهل الجنة: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة: ١٩]، تأمل كيف نفى عنها بهذين اللفظين جميع عيوب الخمر، وجمع بقوله ﴿ يُنزِفُونَ ﴾ عدم غياب العقل وذهاب المال ونفاذ الشراب(١).

❊ ❊ ❊

(١) «تأويل مشكل القرآن» [١١-١٣] ط دار الكتب العلمية.